رحلة إلى جيفور

أبوذر
السنة الأولى في الماجستير
جامعة علي كره الإسلامية

في يوم من الأيام عندما كنا جالسين على مكتب الشأي وتجري الحوار بيننا حول موضوعات مختلفة، إذ اقترح أبصار بالرحلة إلى مدينة جيفور لزيارتها وسياحتها، فصمت الجميع وساد السكوت. وما لبثوا إلا قليلا حتى حظي الإقتراح بالقبول والتقدير بأصوات ساحقة. وأما أنا فكنت في حيص وبيص إلى أن انقشع السحاب وأشرقت بواكير العمل، فبدون أي تاريخ قد عين تاريخ الرحلة ١٠ من فبراير ٢٠١٧م.

إن ولاية راجستهان من أهم ولايات الهند وأكبرها مساحة، تحدها ولاية أترابرديش شرقا وبلاد باكستان غربا وولايتا هريانا وبنجاب شمالا وولايتا مدهيا برديش وغجرات جنوبا، وهي تحفل بكثير من الأسرار التاريخية الممتدة على أكثر 5000 أعواما، كما تمتلك الثقافة الغنية والحضارة الملوكية السنية. شكلت راجستهان بجزئين هامين من الصحارى القاحلة الجدباء والأراضي الجبلية الصلبة من بينها السهولة الممتدة والقصور الفخمة والحصون الشاهقة ما تدعو السائحين من مختلف أرجاء العالم لسياحتها وزيارتها.

بدأ تاريخ المسلمين السياسي الأصيل في الهند بفتح محمد غوري في حرب ترائن الثانية في عام ١١٩٢م ضد "برتهوي راج" ملك أجمير التي تعتبر حاليا من أهم مدن راجستهان. فلما دخل محمد الهند رافق معه معين الدين السنجري، وبدأ يفتح القلوب بموعظته وحسن عمله بعد أن اتخذ أجمير مركزا له. ولم يزل محمد في فتحه البلاد واحدا بعد الآخر وفي هجومه على من يعارضه ويعرقل في سبيله حتى وصل إلى دهلي.

ومن أهم مدنها أيضا مدينة جيفور من أجمل مدن الهند وأظرفها، ساد صيتها في العالم بما فيها من مباني شامخة وعجائب رائعة وآثار قديمة تشير إلى عظمتها التاريخية. تقع هذه المدينة حول سلاسل أراولي الجبلية كأنها تحافظها من جميع الخطرات الدهماء من قبل المعادين. عمرها الملك جي سنكه، إذا خشي على أهاليه في دولته أمير بسبب قلة الماء وكثرة العمران. فبدأ تشييدها في عام ١٧٢٨م وتم بناؤها من خلال أربعة أعوام. ومما لا شك فيه أنها أول مدينة في منطقة آسيا التي عمرت بنظام جميل وتنسيق حسن، وهي أيضا تسمى بالمدينة الوردية. يقال إن الأمير ألبرت عندما زار هذه المدينة في عام ١٨٧٦م، زينها ملكها بألوان وردية في تكريمه واحترامه، فلذلك اشتهرت بهذا الإسم.

قبل صلاة العصر أي في الساعة الرابعة بدأ جوالي يرن بدون انقطاع، أجبت فإذا به ابصار الذي أمرني بالوصول إلى آسمان منزل على الفور، فأخذت أتهيأ للخروج، إذ فاجأني مهتاب بدخوله في الغرفة، فخرجت معه ووصلت إليه، فإذا المنظر كان مختلفا تماما، ولم أجد هناك سوى عاصم وفيصل اللذين وصلا على الرغم من كون رواقهما بعيدا. دخلت الغرفة فإذا غني وشافعي يغرقان في النوم، وحاول مهتاب لإيقاظهما ولكن لم يقدرا بغلبة النوم عليهما. ولم نلبث حتى أن وصل ابصار مع أمتعته اللازمة حاملا على عربة ركشا، دار الحوار بيني وبينه لوضع تخطيطات جديدة للسفر. تجهزنا للخروج بعد أداء صلوة العصر في المسجد، إذ وقع نظري على وجه غفران الذي يتقدم إلى غرفته مبتسما، فقد رزقه الله المواهب الجياشة والذوق الحسن للعربية كتابة وخطابة، ولكن ما يميزه عن الجميع هو ابتسامه الخفيف الذي يتراوح على وجهه. كادت الشمس أن تغرق، إذ غادرت قافلتنا المتكونة على ١٢ شخصا من فصلنا حاملة ألوف التمنيات في صدرها.

إن مسافة جيفور من علي جراه ٣٠٠ كلو مترا نسمة ولكن المشكلة أنها لم تكن تتواجد خدمة مباشرة للقطار منها فلذلك اتجهنا إلى مدينة آغرة بما فيها يوجد القطار السريع الذي يربط مدينة آغره بمدينة جيفور مباشرا. ركبنا الحافلة المتجهة إلى آغرة فلم يمض ثوان حتى تسرع على الشوارع المتسع للمدينة تاركة الضواحي والأرياف خلفنا. وكان مقعدي مع فيصل الندوي الذي اعتبره من خير صاحب بالجنب في السفر بما أنه أكثر الطلاب سفرا إلى لكناؤ مع عمه بالسيارة ويذكر من وقائع السفر بكل شوق ورغبة وبأسلوب جميل. وله براعة في العربية خطابة وتكلما وربما يستخدم الإنجليزية أيضا في خلالها. وهذا من حسن حظي أني كنت معه في هذا السفر الجميل، فدار الحوار فيما بيننا حول سياسة أترابرديش، ويتبادر من أجوبته لبعض الأسئلة أنه مولع بكبير الوزراء "اكهليش يادو" بما أنه قام من أعمال جليلة طيلة مدة حكومته، وشارك سرفراز أيضا في الحوار التي تجري فيما بيننا حتى قطعنا السفر وبدأ يظهر آثار ضواحي المدينة بعد سفر مزعج يستغرق ساعتين. قال فيصل لي:دخلنا مدينة آغرة فاستطار شوقي ورغبتي لرؤية التاج محل ولكن لم أقدر عليه بسبب دياجير الليلة و هذه المدينة التي كانت عاصمة الدولة المغولية التي حكمت الهند إلى مدة مديدة. وصادف نظري على اللوحة الإرشادية التي كتبت عليها "ساد آباد" باللغتين الإنجليزية والهندية، فطار ذهني إلى أنه كان سعد آباد دون ساد آباد ولكنها أصبحت هكذا بكثرة استخدامها وجريانها على الألسن. فمن المستطاع أن نجد عددا كبيرا من مثل هذه الألفاظ المتغيرة التي يفوح ويعبق بها أريج الحضارة الإسلامية في طول البلاد وعرضها.

إن مدينة آغره من أجمل مدن الهند، عمرها سكندر لودهي في عام ١٥٠٤م وأصبحت عاصمة الدولة المغولية فيما بعد وبلغت إلى أوج رقيها في عهد شاهجهان. إنها كانت مهد الحضارات والثقافات في الهند ومحط آمال الناس في مختلف العصور والدهور، كما إنها كانت مركز مختلف الأسر الحاكمة ولها فضل كبير في عرض الحب الصادق الدافق من قلب العاشق الخافق الذي يشرق من أعماق النفس ويصل إلى أغوار النفس ويخلده في حلبة العشاق. بنى فيها الإمبراطور

المغولي شاهجهان التاج محل في ذكريات زوجته ممتاز التي تعد من أجمل مباني العالم حسنا وجمالا وأعجوبة من عجائب الدنيا. وفي الواقع إنه عبرات متجمدة على خد الكون قبل أن تتساقط على الأرض، فيقصر القلم عن وصفها ويحصر الألفاظ عن بيان جمالها وحسنها.

اختفت الشمس وراء الغيوم وبدأت الليل ترخي سدولها، إذا نزلنا من الحافلة واكترينا العربة فلم تلبث أن تسرع بالسير بجنب جدار قلعة آغرة المتينة الصلبة، وطار ذهني إلى العهود الماضية عندما كانت الدولة المغولية تتمتع بالعظمة والجلالة وتستولي على قلوب الناس هيبتها وجبروتها التي تدل عليها هذه المباني الشامخة وأبراجها العالية. ولما مررنا بها التي أصبحت خالية ومظلمة من العامرين والسلاطين، قرعت في آذاننا هذه الأبيات التي قالها وزير أبو الحزم الأندلسي عند مروره بمدينة الزهراء في الأندلس في عام٤٣٥هـ:

قلت يوما لدار قوم تفانوا　　　أين سكانك العزاز علينا!

فأجابت هنا أقاموا قليلا!　　　ثم ساروا ولست أعلم أينا!

بينما أنا كنت أتيه في وادي الخيال وأرى شوكة المسلمين الماضية وآثار عظمتهم في هذه البلدة، إذ وقفت العربة بشدة كبح الجماح، وانقطع سلاسل الذكريات البهية التي تربطني من الماضي الذهبي، ثم نزلنا واشترينا التذاكر إلى جيفور، فدخلنا المحطة وركبنا القطار والليل قد امتدت وألقت ستارها في عربات القطار الذي ركبناه، إلا أن الناس كانوا موجودين وجالسين على مقاعدهم فابتلينا إذا لم نجد المقعد للجلوس، فقاد غفران الجميع ودخل العربة وصاح صيحة مزعجة حتى يتوهم الجماهير أن الجنديين دخلوا فتركوا المقاعد لنا. وفي الهند من عادة الناس أنهم لا يحبون أن يجلس أحد معهم خاصة في القطار لأسباب يطول ذكرها. كنا في انتظار مغادرة القطار، إذ جعل ابصار المائدة عليه، فتناولنا منها وإنها كانت تجربة جديدة لي ثم جلسنا على مقاعدنا مستغرقين في الحديث والفكاهات حتى سمعنا صفير القطار، فبدأ يزحف مودعا مبنى المحطة قاصدا إلى المنزل. داعبت النعسة بالجفون مع تزايد سرعة القطار، وضعت رأسي على كتف غني ولكن أزعجني الأصوات الخارجة من العجلات والسكك الحديدية حتى غلب النوم عليها.

وما زلنا في النيام حتى استيقظت بضجة أحدثها الراكبون، وقبل أن نفهم شيئا وقف القطار وبدأ الناس ينزلون، فنزلنا معهم على الرصيف ووضعنا أقدامنا في مدينة الوردية. كان الشتاء أشد من القطار،وقفنا قليلا ثم خرجنا من المحطة فصادف جماعة من الناس يسألون عن منزلنا وهم كانوا صاحب العربات. لم نجبهم لأن المعلومات كانت عندنا متوافرة، التقطنا الصور أمام مبنى المحطة الساطعة أنوار الوردية. اكترينا العربة ووصلنا إلى مسافر خانه في أقرب مدة مارين مختلف جميلة الشوارع عابرين متسعة الجسور ودخلنا في ثلاث غرف بعد العمليات اللازمة ثم أغرقنا في النوم بعد قليل.

استيقظت في الصباح وفتحت النافذة فأشعة الشمس ترحبنا بأنوارها الساطعة على فرش الغرفة في مدينة جيفور، تناولنا الفطور عاجلا ثم تركنا الغرفة لزيارة أهم أماكنها. وصلنا إلى حديقة الحيوانات ماشين على الأقدام فدخلناها وشاهدنا عجائب المخلوقات وشواهد عن العالم الحيوي من خلق الله تبارك وتعالى وهي تدل على قدرته الجبارة يسبب إضافة في الإيمان من يحمل في طيه القلب المعمور بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . كنا نتجول فيها قرابة ثلاث ساعات ثم خرجنا منها، وصادف نظري على المبنى الشامخ الواقع في طرف آخر من الشارع وتم السيطرة عليه لحمامات تطير في الفضاء وتنزل على الأرض في لحظة. سألت مهتاب عن هذه المبنى وهو لا يزال يبصر على شاسة الجوال ويفيدني بأهم المعلومات المتعلقة بالمدينة، فأجابني أن هذا قصر المتحف الذي تم بناؤه عند زيارة أمير ألبرت إلى مدينة جيفور. اشترينا التذاكر ودخلنا القاعة التي كانت من جزء القصر ومليئة بالأجانب، كما أنها مشتملة على غرائب العالم من الرسومات الجميلة المكتوبة في الفارسية والعربية والظروف المستخدمة في الأزمان الغابرة والسلاحات من مختلف الأنواع والثياب المنسوجة من الحرائر والديباج، كأنه عالم معمور لمن يكن له نظرة عميقة في تقلبات التاريخ، فإذا دخلناه، توزع قافلتنا إلى قسمين، فبقي معنا الآن غفران،محمد صادق،محمد سرفراز الكشميري، فما زلنا متجولين ومشاهدين كل شيئ بالحيرة والاستعجاب حتى انصرف القسم الآخر إلى الخارج وبدا يتصل بنا بالجوال بدون انقطاع للمغادرة إلى مكان آخر. على الرغم من أن غلتنا لم تبرد وشوقنا يزداد مطالبة للوقوف فيه والتبصر بكل شيئ، خرجنا منه مكرهين متثاقلين الأقدام. ثم نستهدف إلى قلعة أمير التي تلوح على أتلال من سلاسل الجبال، طلب ابصار العربة، ولكن أجور صاحبها أكثر فمنعناه، وسألنا رجلا عن الحافلة فأدلنا على ذلك، فتمشينا ماشين على الأقدام مع طرف الشارع حتى ركبنا الحافلة التي تزدحم بالراكبين. قام أكثر أعضائنا طول السفر حتى وصلت الحافلة أمام قلعة أمير مارة بالشارع العابر من الغابة والجبال. كانت درجة الحرارة أشد من علي جراه إذا نزلنا أمامها، أكلنا المثلجات معا، ثم جائت إمرأة فقيرة سائلة باللغة التي لا نكاد نفهم، أخرج غفران مأة روبيات ولكن المشكلة أنها لم تكن عندها متجزأة، فقالت له: أعطني مأة روبية وأنا أرد إليك تسعين منها بعد كونها متجزأة، فأعطاها ثم ذهبت إلى أن غابت عن أنظارنا، فأخذ بعض أصدقائنا يغضب على ما فعله غفران، وظنوا أنها لا ترجع، ولكن بعد قليل نراها راجعة وتقدم إليه بقية من الروبيات، فشكرناها وتأثرنا بإيفاء وعدها.

إن أمير قرية تبتعد عن مدينة جيفور ١١ كلو ميتر، أسسها ملك أسرة مينا آلن سنغه، فلا تزال تبقي حتى تم سيطرة أسرة كشواها عليها. فقام ملك هذه الأسرة جي سنغه ببناء القلعة في عام١٥٩٢م وتعرف فيما بعد باسم قلعة أمير. وهي تقع على ذروة من سلاسل أراولي ويظن الناظر أنها حدأة تغشى المدينة تحت أجنحتها وفي تحتها تقع بحيرة جميلة يصل مائها إلى أهالي القلعة، وفيها أيضا مبنى يعرف بالقصر الزجاج (شيش محل)، استخدم في بنائها الزجاج الكثير الذي يسبب البرودة في موسم الحر الشديد، فأصبح من أجمل مباني العالم، وإذا يضرم النار فيه فيتنور ويشعر أن عدة من

المصابيح اضطرمت. ومن ورائها حصن جي كره التي ترتبط بقلعة أمير من نفق مخيف مضايق، كما هناك قلعة ناهر كره يظن بها أن الأموال الهائلة قد دفنت فيها.

كان المنظر جميلا رائعا، بما فيه ازدحام كبير من النساء والرجال المنتسبون إلى مختلف بلاد العالم، أخذنا نصعد على القلعة ماشين على الطرق المبنية من الأحجار الصلبة والمنحوتة من الجبال. وصلنا إلى ديوان عام حيث كان يلاقي الملوك عامة الناس من رعاياهم، فلما التفتنا أنظارنا إلى المدينة، تبدو كأنها أمام العين تماما. يهب الهواء الصافي ويداعبنا وينبعث إلى أجسامنا الفرح والسرور إلى حد الغاية. ذهبنا إلى قصر الزجاج وتجولنا فيه وأبصرنا كل شيئ بعين العبرة، ثم نال منا التعب فجلسنا على المقاعد مسترحين وبعد قليل دخلنا النفق المخيف المختفي وما زلنا نسير فيه حتى وصلنا إلى ذروة من الجبل الملتف بكثير من الشجيرات والأعشاب، ثم دخلنا القلعة الأخرى تسمى قلعة (جي كره) فالتقطنا الصور من مختلف أبراجها حتى وصلنا إلى مكان يوضع فيه المدفع الهائل الكبير الذي يعد من أكبر مدافع العالم على أنه لم يستخدم في حرب من الحروب سوى التمرين والمزاولة.

مضى النهار إلا أقله وتكاد الشمس أن تختفي وراء الغيوم، تزداد عليها آثار الصفرية بكل لحظة، و قد تلطف الجو وتحسن وتعبنا إلى أن يتثاقل أقدامنا ولم يستطع أحد منا السير إلى الأمام فرجعنا، وعندما ألقينا نظرة الوداع على القلعة، أغرق ذهني في ثناء من بناها وتذكر ما كان لهم من عظمة مفقودة وهيبة جليلة ولكنهم ارتحلوا والآن ما بقي منهم إلا ذكرياتهم البالية وآثارهم القديمة عبرة لأولي الأبصار.ولم نلبث أن وصلنا إلى مكان حيثما يخلفنا الحافلة في النهار، فركبنا الحافلة وغادرنا إلى غرفنا ثم تعشينا معا وتبادلنا الأحاديث حتى غلب علينا النوم.

وقبل طلوع الفجر عندما بدأ الليل يرفع ستارها وينقشع شيئا فشيئا، فاجأتنا أصوات مزعجة تقرع الآذان وما زالت تتزايد حتى استيقظت وتركت فراشي وشعرت كأني في المدرسة وأستاذي الكريم الموقر وكيل يحاول اكتساح الأبواب المغلقة، وعلمت في الصباح أنه كان سرفراز يحاول إيقاظ الأصدقاء لأداء صلاة الفجر جزاه الله خير الجزاء.

وكان يوم الأحد يومنا الثاني الأخير في مدينة جيفور، لأننا حجزنا المقاعد من قبل. وبقيت أماكن عديدة شهيرة لم نتجولها حتى الآن ولم يستغن السائح من السياحة دونها. من أهم القضايا التي واجهناها طول السفر هو قلة الوقت، تناولنا الفطور وخططنا زيارة قصر المدينة(ستي بيلس) وقصر الرياح (هوا محل) وجنتار منتار، فخرجنا من الغرف ماشين على الأقدام لأنها لم تكن بعيدة، ثم وصلنا أولا إلى جنتار منتار وشاهدنا مشاهد لم نسبق إليها من قبل ذلك وإنها حافلة بالمعارف العلمية والعلوم. وكانت هناك جدار يتعرف به الملوك على الأوقات بالشمس، كأنها بحر من العلوم ودالة على عقول الملوك الناضجة، ثم توجهنا إلى قصر المدينة ولم نزل نطوف بما فيه من مناظر بهيجة ونستفيد من تجارب عديدة من حيث أنه أكثر الملوك احتفاظا وحراسا مما طالعناها حتى الآن. وسياحته في هذا الوقت القليل لا يمكن بما أنه تفعم بكثير

من العجائب والعبر لمن كان له عين واع وقلب خافق وذهن ثاقب. يعيش فيه الملك الراهن البالغ من عمره ثمانين أعواما عيشا هنيئا. ودعناه وخرجنا منه وفي الطريق انشغل ابصار في اشتراء الملابس الراجستانية واستغرق فيه أكثر من ساعة واحدة في المساومة والكلام من صاحب الدكان، ثم وصلنا إلى قصر الرياح فمما لا شك فيه أنه مخ المدينة ويعرف به جيفور في العالم. إن قصر الرياح اسم جدار بني فيه ثقوب من حيث أن من يكون في داخله يستطيع أن ينظر من في الخارج بدون أن ينظر إليه من يكون في الخارج. ويتزايد جماله إذا ترسل الشمس أشعتها المشرقة من خلال الثقوب فتؤثر أثرا جميلا على الفرش في داخله. وهذه هي الصنعة التي خلدها مع تخليد مدينة جيفور، وتدعو السائحين من مختلف أرجاء العالم لزيارة القصر. فمن الغرائب أن الدرج لم يجعل في القصر بل استخدم منهج المصعد الحديث الذي قلما يشاهد في الأزمان الساحقة لتوفير السهولة لنساء القصر.

ولما فرغنا من زيارة القصر أردنا إلى سياحة حصن (ناهر جراه) ولكن الوقت لم يسمحنا بزيارته، فرجعنا إلى الغرف ثم تغدينا في فندق مسلم وبدأنا نتهيأ للرحيل.

في الساعة الخامسة والربع كنا على رصيف محطة جيفور، جاء القطار متزحفا ثم وقف، فركبنا وودعنا هذه المدينة الرائعة الوردية حاملين ألوف الذكريات وعدة التمنيات في صدورنا والقاطرة لا تزال تسرع إلى منزلها نفاثة الدخان المتراكم وخارجة الأصوات المزعجة.